لا إله إلّا أنت.. خطاب العبد لربه

في هذه الكلمة يخاطب العبد ربه سبحانه وتعالى خطاباً حضورياً مباشراً، بالغاء كل الحجب التي تحجب العبد عن ربه عزّ شأنه من دون تكلف وببساطة كاملة، هكذا: لا إله إلا أنت سبحانك. ومن عظيم فضل الله تعالى على عباده وجميل رحمته: أن يفتح على عباده أبواب خطابه ولن يكون الإنسان أقرب إلى الله تعالى في حال أفضل من حال الخطاب، ولن يلمس الإنسان حضور الله تعالى في حال أفضل من حال الخطاب ولن يجد العبد في الذات القرب والتعامل مع الله لذة أفضل من لذة الخطاب. إنّ الله تعالى لن يغيب عن عباده. وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يحول بين المرء وقلبه، ولكن الإنسان قد يغيب عن الله، فلا يشعر بحضور الله، فإذا خاطب الله تعالى لمس حضور الله بكل مشاعره، وبقلبه وعقله. والقرآن خطاب الله للعباد، يفتح أبواب هذا الخطاب على العباد. وأبرز مصاديق هذا الخطاب في القرآن الدعاء، ففي الدعاء يتجسد هذا الخطاب من ناحية العبد لله تعالى بأجمل صوره، وأروع مشاهده، تأملوا في هذا الخطاب: (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (آل عمران/ 194-193). وحال الدعاء، من أفضل حالات العبد مع الله تعالى، لأنّ الدعاء يتضمن الخطاب. ففي كل دعاء يلجأ العبد إلى الله، ويطلب العبد حاجته من الله، ولن يتم هذا اللجوء وهذا الطلب إلّا

بالخطاب. وحال الصّلاة من مصاديق هذا الخطاب. ففي الصّلاة يخاطب العبد ربه، فيقول: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة/ 5)، ويقول: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الفاتحة/ 6). إنّ خطاب العبد ﷲ يعمق حضور العبد عند اﷲ، ويعمق وعي العبد لحضور اﷲ تبارك وتعالى. وفي هذا الحضور، وفي هذا الوعي ما لا يعلمه إلّا اﷲ تعالى من لذة القرب والخطاب والعلاقة باﷲ تعالى. ففي كل صلاة لقاء ﷲ وفي كل لقاء ﷲ يخاطب اﷲ تعالى عبده ويخاطب العبد ربه، وليس شيء في هذا الكون كله، في الدنيا والآخرة، ألذّ من هذا الخطاب المتبادل بين اﷲ تعالى وعبده. ففي كل صلاة كان يلمس رسول اﷲ (ص) لقاء اﷲ وفي هذا اللقاء كان يجد رسول اﷲ لذة القرب والخطاب مع اﷲ. ولذلك كان يقول رسول اﷲ (ص): "قرة عيني الصّلاة". ومن بؤس الإنسان وشقائه أن يفتح اﷲ تعالى على عباده أبواب هذا الخطاب في الصّلاة والدعاء ويرفع ما بينه وبين عبده من الحجب ويدعوه إلى خطابه، ويأذن له بذلك ويستجيب لخطابه ودعائه، رغم هذا الفاصل اللامتناهي الذي يفصل العبد عن اﷲ... ثمّ لا يعي العبد قيمة هذا الخطاب، ولا يشعر بما في هذا الخطاب من لذة وقرة عين.